المشرق

سويسرة افريقية او بلاد منليك

بقلم جناب عبدالله افندي خائيل رعد الصيدلي القانوني في بلاد الحبشة

١ تمهيد ونظر عام

سبق لنا ان تكلمنا مرّات في المشرق الزاهر وفي البشير الاغرّ عن الاحباش فحثنا على ذكر تاريخ كنيستهم وبعض عاداتهم واعيادهم ولغاتهم ووصفنا شذرات من شرقي بلادهم كديريداوا وهرر وجنوبيّها بين اديس ابابا وبحر الغزال . امّا الآن فليسمح لنا القرّاء الاجلّاء ان نخوض معهم في وصف جغرافية الحبشة وننظر بعد ذلك نظرة عموميّة في نبات وحيوان هذه البلاد التي نهضت اليوم من عالم النسيان والجهل واخذ العلماء اصحاب العقول السامية المدارك يرحلون اليها بشجاعة تردري بشجاعة الاسود فدرسوا اراضيها وسهولها وجبالها ومياهها ليفتحوا لها سبيلًا للترقية في الحضارة واتيان المجتمع الانساني خيرًا جزيلًا

الحبشة كناية عن سلاسل جبال شاهقة تفوق علوًّا وعظمة على كل جبال القارة الافريقية التي هي كسور فخيم يحدق بالصحاري المجاورة للاوقيانوس الهندي والبحر الاحمر اوّله في رأس الرجاء وآخره في بلاد النوبة ومصر . امّا هذه الجبال الشاهقة الحبشيّة فموقعها متوسط بين خطّي الاستواء والجدي الشمالي وهي قائمة تجاه الهند واليمن بعضها تحمل على رؤوسها سهولًا واسعة يمرّ في اطرافها النيل وتمتدّ في وسطها قطع الماء العظيمة كبحيرتي نياترا ورودُلف وغيرهما والبعض الآخر ترتفع قممهُ حتى تناطح

الجو كجبال « كيليما نجارو » و « كينيا » التي كان يدعوها الاقدمون جبال القمر

يشاهد القادم الى الحبشة من جهة الشرق هذه الجبال تشمخ امامهُ بانفها كقلعة حصينة طولها نحو ١٠٠ كيلومتر من الجنوب الى الشمال وعلوّها يزيد عن ٣٠٠٠ متر تتجلّى مفتخرة بما زيّنتها به الطبيعة من ماء وخضرة وهواء طيّب ومناخ معتدل وتهزأ بجاراتها صحاري الصومال المقفرة ورمال الآثار المحرقة . اما من جهة الغرب فان سهولها تتدرّج بالانحطاط حتى تكاد تختلط بأكمات السودان فتشقّ جوفها المياهُ التي تنحدر منها الى النيلين (الابيض والازرق) وتبتلّ اطرافها بامواج البحيرات التي ذكرناها (١ غير مرّة

٢ من جيبوتي الى هرر

اضرب صفحاً ايها القارئ الكريم عن وجود السكة الحديدية (٢ وهلمّ فامتطِ معنا بالفكر صهوات الخيل ولنخرج من جيبوتي تلك المستعمرة الصغيرة الافرنسيّة المبنيّة على شاطئ خليج « تجُرّه » فنقطع بلاد الصومال متّجهين نحو جالديسا اول البلاد الهررية والمسافة ليست بعيدة لانها لا تتجاوز ٢٥٠ كيلومترًا . قد اعددنا الخيام والمؤونة والسلاح والذخيرة واستأجرنا عبيداً من صوماليي المستعمرة ليقودونا في هذه المجاهل ويردّوا عنا فيها غزوات بني جلدتهم . أحضرت الجمال والبغال ورُفعت الاثقال وصرخ قائد الحملة هيّا على السفر ! . . . .

ماذا نرى عند ولوجنا ارض المملكة الحبشيّة بعد اجتيازنا ٩٠ كيلومترًا تابعةً للمستعمرة الافرنسيّة ؟ ها هي صحاري الصومال المحرقة نراها تنبسط امامنا يتخلّلها اكمات سوداء بركانيّة الاصل قفرة قحطة محزنة مخيفة عارية عن كل نبات اخضر

ها هي الشمس الافريقية ترسل اشعتها كاللهيب فوق تلك المجاهل فتجعلها كالاتون الحمى ويشعر المسافر فيها كانهُ يجتازها في عهد هياج براكينها بحرقة وهجُ ما ينبعث من تلك الافواه الجهنميّة . تصوّر ايها الرفيق كانك في سهل متّسع واذا بالارض قد انشقّت بغتةً وقذفت من جوفها الى الجوّ عمودًا عظيمًا من الحُمَم السائلة من كثرة

---

١) بحيرات نيانزا ورودلف وهرامايو وعباي وأدلبي وغيرها كثير

٢) راجع وصف هذه الطريق من جيبوتي الى دير داوا بالسكة الحديدية في المشرق العدد ١٥ ايار سنة ١٩٠٣

الحرارة ثم سقط هـذا العمود منتشراً على الارض بلا نظام ولا ترتيب فبرد وتجمّد كما تتجمّد المواد الذائبة التي تقذفها البراكين فيكون لك من تحوّل هذا السهل صورة تشبه بلاد الصومال كلّ الشبه ... نرى بلاداً أبت الزرقاء ان تعطيها الندى وحلفت الطبيعة ان تحرمها النسيم. قامت غيوم السماء تتباعد عنها وجاءت لشمّة الشمس كلهيب النار المتّقدة تضرب على الحجارة وتحميها فتصير مع الزمان كانها وُضعت في اتون الكلس فكيف بها وهي تضرب على رأس الرجل الابيض المعتاد على نسيم بلاده ونعيمها. يضغط ثقل الجوّ على المسافر فيضيق صدره ويحترق جوفهُ وتلتهب رئتاهُ ويسدُّ بصرهُ. ان نظر الى الارض رآها كانها ترتجف وان احدق الى الفضاء تراءت لهُ الدنيا كانها ممتلئة من سيوف نارية تتصادم لمامهُ. يلقي بمظلتهِ الى الوراء لينظر الى السماء فتتلقّى رئتاه حرارة كانهُ يتنسم فوق وجاق النار. يجيل نظره يمنًا وشمالًا فلا يشاهد الّا الوهاد والسهول نُثرت فيها هنا وهناك قطع كبيرة من الحجارة البركانيّة بعضها كروي وبعضها كثير الزوايا ولكم قذفت منها افواهُ البراكين في سالف زمن تلك البلاد! . يطلب شجرة يستريح في ظلّها فلا يجد سوى بعض شجيرات يابسة من نوع الميموزا الشوكية قد رعت الجمال اطرافها. رمادية اللون لا ورقة عليها ولا زهرة ولا ثمرة وهي قائمة على ساقها كهيكل عظام منتصب على رجليه ... بلاد تحوم فيها الضباع ليلًا حول المضارب والنمرُ والاسد يلقيان الويل بالليل والنهار بين قطعان الغنم والطرائد. يا لها من ارض افرغ الله عليها سجال نقمهِ! ..

من هم سكان هذه البلاد؟ .. قبيلة همجيّة من الصومال يقال لها قبيلة العيسى تتيه عشائرَ منفصلة من جهة الى جهة ومن ناحية الى أخرى سائقات امامها القطعان الكبيرة من الغنم والمعزى والجمال فتغتذي بلبنها وهو تروي عطش اولادها. هؤلاء هم سكان البلاد يتنقلون من ارض الى ارض ولا يعلم بعددهم وباعمارهم الّا الله. لونهم اسود لامع واعينهم تبرق كالماس رؤوسهم صغيرة وملامحهم شنيعة وشعورهم جعدة. يسيرون ايامًا في الشمس حفاة الارجل مكشوفي الرأس لا ثوب على اجسادهم ولا غطاء الّا ما ندر. تراهم طوال القامة نحيلي الجسم يتنقلون في الصحراء بسرعة الغزلان لا همَّ عندهم ولا افكار تنازعهم. مضاربهم تشبه مرابض الكلاب وهي تتألف من بعض الحصر والعشّ. آنيتهم قليلٌ من الاوعية الخشبيّة ومقتناهم الرماح والخناجر

ويلٌ للمسافر الذي تطغيه لذّة الصيد والقنص فيبتعد عن القافلة . يأتيه من حيث لا يدري ذاك الرمح المسمَّم فيطعنهُ في جنبه ويلقيه على الارض جثّةً بلا حراك . فمن ذا يأخذ بثاره ولدى مَن يُطالب بدمه !... قتلهُ ذاك العبد الذي كان كامنًا وراء الصخرة او اكمة التراب واتى اليه فقطع منهُ بعض اعضائه وغادره مأكلًا للضباع ولبنات آوى ثم طار الى آله البرابرة بما حملهُ من العلامة . هناك يوضع على رأسه ريش النعام وتقام الولائم وليالي الرقص احتفاء بعيد قتل الانسان الابيض .... كم وكم من الذين قتلوا في تلك المجاهل ولم يُعثر لهم على أثر . تجار وسيّاح ووفود سياسيُّون وكهنة مرسلون ومهندسون وغير ذلك سقوا بدمائهم ارض الصومال فذهب ذكرهم مع آخر انفاسهم

ولكن اليوم زالت من الصومال كل هذه الاخطار واصبح قطع السهول الصومالية سهلًا بفضل السكة الحديدية . انَّما يعلم الله كم قاسى اصحاب هذا الخط من الاهوال حتى مدّوه وكم من مرَّة شنَّ هؤلاء البرابرة غارتهم على القافلة فاهرقوا دماءهم بالرغم عن الاحتياطات والتدابير والوسائل الجمَّة التي كانت قد اتخذتها ادارة هذه الشركة لتردَّ عن فعلتها ومأموريها صدمات هؤلاء المتوحشين . ها هي اليوم قد فازت بالمأمول وصارت تنقل المسافر من جيبوتي الى هرر بيومين مستريحًا ناعم البال بعد ان كانت المسافة اثني عشر يومًا محفوفةً بالاهوال والاخطار والمتاعب

*

بعد ما يقطع المسافر هذه الصحاري ويصل الى اول جبال الحبشة يرى الارض قد بدأت ان تكسي بالحلل الخضراء وبقدر ما يرتفع على الجبل يرى القطعان والدواب في المراعي الخصبة النابتة في المنخفضات بين الآكام ويشاهد اليمام والدجاج البرّي (pin-tades) تتطاير فوق الصخور . ثم يصل الى عين ماء فيضرب هناك خيامهُ ويستريح ويشرب الزلال ويتنسَّم الهواء . وان سأل بعد ذلك عن اسم المكان فيقال لهُ انهُ دخل ارض مقاطعة هرر وانهُ على مقربة من جالديسًا

جالديسًا اسم لبلدة هي عبارة عن أكواخ قشّ وهشيم سيئة المناخ سكّانها صومال وگالًا وبعض من الاحباش . كان بها جرك الحبشة من تلك الجهة وهي تحت قيادة اتورشا الحاكم الحبشي الكاثوليكي الذي تكلمنا عنهُ غير مرَّة . اما اليوم فقد انتقل

هذا الجمرك الى ديريداوا حيث محطة السكة الحديدية واصبح اتو مرشا المذكور حاكماً على هذه المدينة الاوربية الجديدة .

يترك المسافر في جالديسا الجمال والجمالين الصومال الذين كان قد استأجرهم من جيبوتي ويستأجر هناك بدلاً منهم رجالاً من انكالاً ألين عريكةً واوقد فهماً والطف معاشرة ويقوم بهم ليبتدئ بالصعود على تلك الجبال التي كان قد رآها عن بُعد وهو في الصحراء كأنها قلعة حصينة تحول دون اجتيازه الى الناحية الاخرى فيتبع طرقات ويا لها من طرقات وعرة كثيرة الصخور والعقبات ولكنهُ مع ذلك لا يبالي بها لا بل تتراءى لهُ كانها لسهل من الصحراء التي اجتازها لانَّ الاشجار والاعشاب تكتنفهُ من كل الجهات ولانَّ الهواء رطب والمياه غزيرة تتكسر امامهُ على الصخور فيسير على هذه الطريق ست ساعات ثم يحط ركابهُ بعد ذلك في قرية « بلاوا » بضيافة رجال اتو مرشا الانف الذكر وهي من جملة القرى التي أقطعهُ اياها سموّ الراس مكونين . فيأكل هناك المسافر ويشرب لانَّ صاحب البلدة مشهور بالكرم واللطف والانس ومثلهُ رجالهُ وآلهُ وخدامهُ . ثم يقوم في الصباح ويكمل صعوده على الجبل حتى يصل الى قمته فتنبسط هناك لعامهُ السهول الخضراء حتى يغيب آخرها عن البصر كأنها حقول ومزارع واشجار وانهار وهي السهول المورقة الخصبة فيجتازها يطء وهو يستنشق الهواء الرطب الحسن ويمتع نظره برأى الخضرة والاشجار والماء فينسى ما قاساه من الاهوال والحرّ والعطش في صحراء الصومال . واخيراً يصعد رابية صغيرة فتنقشع لهُ مدينة هرر عن بُعد بين البساتين (١

*

يظهر ان بلاد الصومال لم تكن في الاعصر السالفة كما وصفناها اليوم من القفر وكثرة الحرّ والخلوّ من الماء والنبات لانَّ الجغرافيين اليونانيين وصفوا لنا هذا الساحل من القارة الافريقية فقالوا انهُ مغطًى باحراج عظيمة من النخيل تسكنها قطعان الفيلة . نعم انهُ كان كذلك بدليل بقاء بعض اشجار النخيل بالقرب من بلدة تجرّه في اواخر

(١) قد اضربنا صفحاً هنا عن وصف مدينة هرر وضواحيها لاننا تكلمنا عن ذلك باسهاب سابقاً في المشرق والبشير . فنحيل اذاً القرّاء الكرام الى المشرق في عدده الصادر في ١٥ آب من السنة ١٩٠٣

الخليج وغابات صغيرة من شجر الميموزا على رؤوس بعض الاكمات في اقاصي الصحراء. لذلك يُستنتج ان ينابيع المياه لم تجفّ الّا عقب احتراق هذه الغابات في عهد الغزوات والحروب التي حصلت بين الاحباش والشعوب المجاورة لهم. واليوم لو أُقيم بين الاكمات بعض السدود لأمكن في كثير من نواحي هذه البلاد الصومالية ان تُعمل خزّانات طبيعيّة تجتمع فيها مياه السيول التي تنحدر من جبال الحبشة وان يُزرع في هاته الجهات كثيرٌ من محاصيل البلاد الحارّة المعروفة كالكاوتشوك وسواه ولأصبح جوار مستعمرة جيبوتي غزير الماء حيث لا ينبع اليوم سوى قليل من الماء الحارّ وذلك لان بينها وبين منحدرات الجبال صحاري شاسعة محرقة كما ذكرناها يجفّ فيها كل مجرى امكنهُ ان يسيل في طيّ طبقات الارض

ومع ذلك فانّ ثغر المستقبل باسمٌ لهذه المستعمرة الصغيرة التي أُقيمت بدلًا من أُبخ (Obock) فانّ مناخها اصلح من مناخ هذه الاخيرة وهي اقلّ حرارة منها ولا تلفح فيها ريح السموم التي تثور بالصيف في أُبخ وهي ريح حارّة قتّالة يقال لها هناك ريح الخمسين (لانها تنفخ مدّة خمسين يوماً متوالية بلا انقطاع) وبنوع اخصّ لانّ المستعمرة اقرب مرفأ للحبشة. فهذه البلدة الصغيرة (اي جيبوتي) التي لم تزل الى اليوم في طور الطفولية هي مؤلفة من بيوت جميلة بيضاء مربّعة الشكل مبنيّة على ثلاثة من اشباه الجزر الصغيرة يقال لها جزيرة الشوحة وجزيرة الحيّة وجزيرة جيبوتي. امّا هذه الاخيرة فانها اكبر من الاولى والثانية. ميناؤها جيد وحوضها يأمن الامواج تلتجئ اليه البواخر والمراكب الشراعيّة عند اشتداد الانواء وهياج البحر. سكانها اوربيون (والقسم الاكبر منهم افرنسيون) وارمن وارام وهنود وعددهم نحو الثلاثماية بينهم اربعة سوريين او خمسة. امّا الوطنيون فيسكنون نحو الفي من بيوت الهشيم اقاموها وراء المدينة الاوربيّة وهم نحو خمسة او ستة الاف رجل بين صوماليّ (وهم العدد الاكبر) وعربيّ وحبشيّ ودنكليّ. امّا تجارتها فاهمّها صنف الاسلحة والذخائر وهي الوحيدة بهذا الصنف في شرق افريقية ثم اصناف الاقمشة والاشربة والمآكل وهي دون الاول اهميّةً. هذا ما خلا عموم الاصناف التي ترد اليها برسم الحبشة والتي تصدر من هذه الاخيرة الى اوربّة مارّةً بها

ماء جيبوتي يأتيها بانبية حديدية من آبار جيدة تنبع على بُعد ثلاثة كيلومترات

من المدينة في محلّ يُقال لهُ حمبولي ارضهُ صالحة للزراعة بهِ جنينة جميلة للافرنسيين وبعض بُستينات للعرب يزرعون فيها بقولًا في فصل الشتاء. امَّا في الصيف فلا ينبت ثمَّ نبات اخضر لشدَّة الحرّ وحرارة الماء

فبالرغم اذًا عن كل العوائق والموانع ومهما قال فيها الرجفون انَّ المستقبل باسمٌ لهذه المستعمرة كما اشرنا فوق هذا وانَّما الفضل بذلك كل الفضل لموقعها الجغرافي لا لموقعها الطبيعي اذ لا خير يُرتجى من نفس جيبوتي لانَّ ارضها رمليَّة ماحلة وشمسها متوقدة قادحة لا ينبت فيها نبات ولا سبيل فيها لانتشار الصنائع . وانَّما موقعها الجغرافي من اجمل المواقع واعزّها لانَّ السكة الحديديَّة قد ذلَّلت ما كان وراء هذه البلدة من صعوبة التواصل في الصحراء ووصلتها رأسًا مع الحبشة تلك البلاد الخصبة والعظيمة التي بدأت اليوم بالخوض في معمعة الشعوب وبالنزول الى ميدان حركتها بعد ان اقامت بعزلة الوحدة مدَّة القرون الطويلة. لذلك اصبحت جيبوتي اليوم الباب الوحيد من جهة البحر لبلاد منليك اجمعها . وبالوقت نفسهِ اضحت محطَّةً مهمَّة تلجأ اليها السفن الحربيَّة والتجاريَّة لاخذ الفحم والمؤونات . امَّا موقعها السياسي فهو ذو شأن يوازن موقع عدن وكلا الموقعين لا تخفى اهميتهُ على كل بصير فانهما باب البحر الاحمر تمرُّ فيهِ السفن الذاهبة الى الهند وخليج فارس والصين واليابان ومداغسكر واستراليا وسواها وما خلا ذلك فانَّ جيبوتي محطَّة صحيَّة مهمَّة بمستشفاها الذي تحتلُّهُ الجنود العائدة مريضةً من مدغسكر والهند الصينيَّة فكم عاد اجتياز البحر الاحمر بالويل من ذي قبل على مثل هؤلاء المرضى الذين كان يُدفن معظمهم في لجج البحر (لها بقيَّة)

السَّلم

للشاب الاديب حلمي افندي مصري احد طلبة كليَّتنا سابقًا

١ قِصرَ السِلمِ اغمدِ السيفَ غمدًا طالما في القتالِ ضحَّيتَ جندًا
قد عَهِدناكَ تنشأ الحربَ حقدًا لا نظنك اليوم تنسى العهدًا
فقصير للسلمِ خصمًا ألدًّا